

هل التاريخ علم؟

فرض التاريخ نفسه في العصر الحديث علماً بما له من مناهج وطرائق بحث وشروط محدودة، استقامت بعد جهود وافرة بذلها علماءه، ونظرياتٍ استتبَّطها مؤرخون وفلاسفة إبان القرنين الأخيرين بخاصة؛ أي: إنه استوى علماً، بما له من وسائل في تقصي أحداثه وتفسيرها، دون أن يكافئ ذلك تفسير للنشاط العقلي للمؤرخ الذي يتولَّى عملية تفسير الأحداث نفسها.

التاريخ هو أحد العلوم الاجتماعية التي ظل الجدل حول ماهيته ومنهجه لكثير من الوقت ، فالى حد قريب كان اهتمام الباحثين منصباً حول معرفة ما اذا كان التاريخ هو في حقيقته يشكل أحد العلوم الاجتماعية وجزءاً متداخلاً منها ، أم أنه لا يتعدى كونه فرعاً من الآداب الانسانية القائمة على السرد الانشائي – الادبي في الكتابة ، وبدون شك ان جزءاً كبيراً من هذا الغموض يكمن في التاريخ نفسه .

لم يقف اختلاف الباحثين عند حد التباين في تفسير مفهوم التاريخ ونطاقه بل امتد الى النظر الى كونه علماً وادباً او كلا الاثنين، وظل هذا الامر مدار خلاف بين المؤرخين أنفسهم وبينهم وبين المختصين بالعلوم الاخرى، لاسيما العلوم الطبيعية، ولعل من أبرز المنادين بعلمية التاريخ وانه ليس فرعاً من الادب، هو بيوري (J. B. Bury) الذي يعد من أشهر مؤرخي انكلترا في الربع الاول من القرن العشرين، فقد أعلن في احدى محاضراته في جامعه كمبرج (Cambridg) عام ١٩٠٣م: " ان التاريخ علم لا أكثر ولا اقل "، ولم يقبل الفلاسفة الطبيعيون بهذه المقولة وانبروا ليثبتوا ان التاريخ دون العلم بكثير، لان مادته تختلف عن مادة العلوم التي يشتغلون بها من حيث كونها غير ثابتة ولا قابلة للتحديد، ويرى هرنشو (F. J. C. Hearnshaw) انه على الرغم من اننا لا يمكننا ان نستخلص من التاريخ قوانين علمية ثابتة على غرار ما هو كائن في العلوم الطبيعية ، فإن هذا لا يجوز أن يجرده من صفة العلم .ويكفي في اسناده صفة العلم الى موضوع ما ، ان يمضي الباحث في دراسته مع سعيه الى توخي الحقيقه وان يؤسس بحثه على حكم ناقد أطرح منه هوى النفس وياعد نفسه عن كل افتراض سابق مع امكان التصنيف والتبويب فيه ... وهناك اعتراضات اخرى نادى بها هؤلاء العلماء لدحض علمية التاريخ التي اشار اليها هرنشو (F. J. C. Hearnshaw) وهي تتلخص فيما يأتي:

١. ليس من الميسور معاينة وقائع التاريخ معاينة مباشرة.

٢. ان الاختيار والتجربة أمران غير ممكنين في الدراسة التاريخية.

٣. لا يمكن ان تصل في التاريخ الى التعميم او القوانين العلمية، لان كل واقعة من التاريخ قائمة بذاتها.

٤. ان مادة التاريخ مركبة تركيبيا لا نهاية له، وليس ثمة اتفاق بين المؤرخين على ما هو هام من الوقائع وما ليس بهام.

٥. أن عنصر المصادفة يهدم كل تقدير سابق ويحبط كل محاولة ترمي الى استباق الاحداث والاخبار بيها قبل وقوعها.

والحقيقة ان محاولة إطلاق كلمة (علم) على التاريخ او نفيها عنه، تعتمد على تحديد معنى العلم، فاذا ما عرف تعريفا "ضيقا"، بحيث يقتصر بالدرجة الاولى على العلوم الطبيعية، " العلم اجتماع طائفة كبيرة من الوقائع المتشابهة بحيث تنشأ عن اجتماعها وحدة عامة على هيئة مبدأ او قانون يمكننا على وجه اليقين من التنبؤ بحدوث وقائع مشابهة للوقائع المذكورة في ظروف معينة "، فإن التاريخ لا يمكن ان يكون علما" استنادا الى هذا التعريف، ويشارك التاريخ في هذا الامر علوم اخرى، ينقصها عنصر مهم من مستلزمات العلوم الطبيعية ذلك هو التجارب المختبرية مثل علم الارض (الجيولوجيا)، وعلم الفلك اللذان لا يمكن للباحث فيهما ايضا ان يجرى تجاربه في المختبر، فالجيولوجي مثلا لا يستطيع ان يجرى التجارب المختبرية على الحركات الجيولوجية التي حدثت في الماضي، بل ان كل ما يستطيع عمله هو ان يدرس الاحوال الحاضرة للأرض فيستنتج منها تأريخها، كذلك لا يستطيع الفلكي أن يخضع الظواهر الفلكية التي يدرسها الى التجارب والاختبار، لأنها خارج نطاق سيطرته، لكنه يعتمد على رصد وملاحظة تحركات الاجرام السماوية في منهج بحثه العلمي، ليستخرج منها الحقائق والقوانين التي تحكمها.

ويقول هرنشو (F. J. C. Hearnshaw) ان التاريخ ليس علم تجربة واختبار ولكنه علم نقد وتحقيق لا يشبه علم الفلك، الذي يقوم على المعاينة المباشرة ولا الكيمياء الذي هو علم تجربة واختبار، ولعل أقرب العلوم الطبيعية شبيها" به هو علم الجيولوجيا، فكما ان الجيولوجي يبحث في احوال الارض في الوقت الحاضر ليعرف ماضيها، كذلك المؤرخ يدرس الاثار المتخلفة عن الماضي ليفسر ظواهر الحاضر، ويجد الجيولوجي مادته الأساسية فيما سلم من نفايات الطبيعة من أدلة يمكن ان تثبت التطورات الجيولوجية القديمة، كذلك يعتمد المؤرخ في الاحداث الماضية على الاثار المادية او الوثائق والسجلات والتقاليد التي سلمت من عوادي الزمن، وهذه الحقائق

المحسوسة الحاضرة هي التي ينصب عليها عمل المؤرخ وهي مادة عمله وتكمن قيمتها وأهميتها في دلالتها على الوقائع الماضية لا في ذاتها.

ويمكن أن يعد التاريخ علما إذا ما عُرِف العلم تعريفاً أشمل وأوسع من التعريف الضيق الذي سبقت الإشارة إليه فالعلم هو: معرفة تراكمية او نشاط عقلي يتوخى الكشف عن الظواهر المادية وغير المادية في العالم وبعبارة اخرى مجموعة منظمة من المعارف والحقائق التي أمكن التوصل إليها بمنهج خاص من البحث والتحري والملاحظة والتحقق، ولقد أشار الى هذا المعنى من العلم كل من لانجولوا (C.Y.Langlois) وسينوبوس (C.Seignobos) في مقدمة كتابهما (المدخل الى الدراسات التاريخية) فقالا بأن "التاريخ علم ما في ذلك ريب، لأننا نستطيع ان نطلق كلمة (علم) على كل مجموعة من المعارف المحصلة عن طريق منهج وثيق للبحث في نوع واحد معين من الوقائع فهو علم الوقائع التي تتصل بالأحياء من الناس في(مجتمع) خلال توالي الأزمنة في (الماضي) ...". ان العلم هو الكشف عن حقيقة الاشياء وهذا هو المعنى الذي نقصده من قولنا ان التاريخ علم... فالتاريخ هو العلم الخاص بالجهود الإنسانية، او هو محاولة تستهدف الاجابة عن الأسئلة التي تتعلق بجهود البشرية في الماضي ."

ان الذي يدعو الباحثين الى توكيد الجوانب العلمية للتاريخ هو انه يشارك العلوم الاخرى، بان له منهجا" وطريقة خاصة به للبحث تمكنه من جمع مادته وحقائقه، وهذه الطريقة او ان المنهج هو ما يسمى بمنهج البحث التاريخي (*Historical Method*) وهو يعني تحري الحقائق والاهتمام الدقيق بالتعمق في تحليل المصادر والبحث في سجلات الماضي ومخلفاته وقراءة الكتابات القديمة ودراسة المخطوطات وانواع الوثائق التي خلفها الماضي، سواء كانت اكانت بقايا مادية ام مدونات تاريخية، وحينما يتبع المؤرخ هذا المنهج عليه ان يثبت بشكل لا يقبل الشك من صحة هذه الوثائق، ودقة روايتها والمستوى العقلي والخلقي لكتابتها، وأنها تعود بالأصل الى الماضي فعلا، وان عباراتها قابلة للتصديق، وهذه الطريق العلمية التي تجعل الشك اول مراتب اليقين، هي التي تؤكد علمية التاريخ ومنهجه، لان شك المؤرخ هو رائد حكمته، ولهذا فقد استحق التاريخ لقب العلم، لاسيما في منهجه الذي " ينظر الى الاحداث ويحللها ويقارن بينها ويحقق الروابط القائمة بينها، والمؤرخ يبحث عن الحدث ويدركه بدرس النصوص بإمعان ودقة والطريقة واحدة في كل علم مؤسس على الملاحظة الدقيقة ."

ولكن المؤرخ لا يقتصر على جمع الحقائق ونقدها وتحري صدقها بالطرق العلمية فحسب، بل يتعدى ذلك الى عرض هذه المادة التي جمعها واثبت صحتها والى تناولها بالتفسير والتأويل والاستنتاج، وهذا يتطلب مواهب اخرى، لا ينهض بها الا من أوتي خيالا" علميا" واسعا" قادرا" على التحليق في اعلى الاجواء، دون ان يخرج من اضيق حدود الحقيقة، ولا بد للمؤرخ هنا من

الاستعانة بالأدب الذي هو المعبر عن رغبات الانسان وأمانيه والذي يزوده ببصيرة نافذه شديدة المرونة والعمق في أمور العقل الانساني، ويجب على المؤرخ ان يوازن بين العلم والادب في كتابته لأنه " إذا تغلب الادب على المؤرخ لإهماله العلم، أو إذا تغلب عليه العلم لإهماله الادب، جاءت الصورة التي يرسمها للإنسانية ملتوية مشوهة فتدوين التاريخ يقترب من الكمال بقدر ما بين المعرفة والفن من اتساق في العمل.